

التربية الروحية عند محمد سعيد رمضان البوطي

The spiritual education of Muhammad Saeed Ramadan Al-Bouti

عصام إبراهيم بوناب¹

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

aissambounab@hotmail.com

أ.د. عمار طسطاس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

Testas@outlook.fr

تاريخ الوصول 2020/12/13 القبول 2022/03/23 النشر على الخط 2022/05/10

Received 13/12/2020 Accepted 23/03/2022 Published online 10/05/2022

ملخص:

إن الحياة البشرية لا تستقيم و لا ترقى و لا يحدث لها التوازن المنشود الذي يسعد الإنسان كفرد أو كجماعة في الدنيا و يفوز في الآخرة إلا إذا ظللتها الحياة الروحية التي تقوم على صفاء الروح و طهارة النفس كثمرة من ثمرات التربية الروحية التي أمر بها الإسلام و التزم بها الربانيون على مر العهود كفهم صحيح لما يدعو إليه الإسلام من خلال الكتاب و السنة .

و عليه فإن هذه الدراسة تعالج موضوع التربية الروحية عند الإمام البوطي – رحمه الله – و تسعى جاهدة لكشف مدى عنايته بها في منهجه الدعوي عموماً و من خلال شرحه للحكم العطائية خصوصاً.

الكلمات المفتاحية: التربية، الروحية، الملامح، القلوب، السلوك.

Abstract:

Human life is not straight and does not progress and nothing but the desired balance occurs that makes man happy as in individual or as group in this world and wins in the hereafter unless it is shaded by the spiritual life that is based on the purity of the soul and the purity as a result of spiritual education that Islam commanded and the rabbis have adhered to it through the ages as a correct understanding of what our true religion calls for the Holy Quran and the Sunnah of the Prophet and accordingly .

This study deals with the issue of spiritual education for Imam Al-Bouti –my god have mercy on him- and strives to reveal extent of his care for in his advocacy approach in general and from during which he explained the ruling in particular .

Keywords: Education-Spiritual- Features-Hearts- Behavioire.

1. مقدمة:

إن الناظر في حياة المسلمين اليوم يجدها قد مُلئت بالجوانب المادية و انتشرت فيها الاستهلاك بشكل مخيف فالكمل يجري وراء سراب الدنيا و متعتها و شهواتها و الكل مفتون بتنمية رصيده المادي و تأمين مستقبله القريب و البعيد و أهملوا الجانب الروحي في حياتهم و لهذا فإن الحياة البشرية لا تستقيم و لا ترقى و لا يحدث لها التوازن المنشود الذي يسعد الإنسان كفرد أو كجماعة في الدنيا و يفوز في الآخرة إلا إذا ظللتها الحياة الروحية التي تقوم على صفاء الروح و طهارة النفس كثمرة من ثمرات التربية الروحية التي أمر بها الإسلام و التزم بها الربانيون على مر العهود كفهم صحيح لما يدعو إليه الإسلام من خلال الكتاب و السنة ، و من هؤلاء العلماء الربانيين محمد سعيد رمضان البوطي-رحمه الله- هذا العالم الفذ الذي اهتم بالجوانب التربوية في حياة المسلمين من خلال مؤلفاته التي ركّز فيها على الأخلاق و السمو بها و قد انقسمت جهوده التربوية بين التربية الدينية و التربية الروحية التي تجعل الفرد المسلم يحمل رسالة فكرية يعتقدها و يحملها بإيمان و يقين و يدافع عنها و يواجه بها كل أنماط الحياة و هدفه تكوين مجتمع قوي و متماسك و طريقة تربوية مفيدة لمعالجة الفرد المسلم معالجة شاملة تكون مركزة على الفطرة السليمة التي فطره الله عليها و تقومها عند الانحراف ، و سنتناول في دراستنا الحياة الروحية عند محمد سعيد رمضان البوطي-رحمه الله- بجميع جوانبها التي شملتها و تجلياتها في مؤلفاته و فكره.

و من المعروف أن التربية الروحية هي أساس كل دين باعتبارها المنهاج الذي يسير وفقه الإنسان ، ولهذا التربية عدة جوانب لا بد من معرفتها و تطويرها للاستفادة منها و من الشخصيات التي اهتمت بهذا المجال محمد سعيد رمضان البوطي-رحمه الله-و لهذا فإن إشكالية البحث تتمثل في تبيان جوانب التربية الروحية عند البوطي من خلال تبيان مفهومها و أسسها و سماتها ثم نتقل لأهدافها و شروط تحقيقها ثم نتناول ملامح التربية الروحية عنده من خلال كتابه شرح الحكم العطائية.

إن أي بحث في الفكر الإسلامي لا يخلو من أهمية معرفية و لهذا فأهمية هذا البحث تتجلى في توضيح الرؤية و تبيانها حول التربية الروحية التي تحتاجها كل أمة لتبلغ مجدها ، و تتمثل أهداف البحث فيما يلي:

* تبيان عناصر التربية الروحية و ضرورة الالتزام بها لتحقيق الغاية المثلى لها .

* تبيان ملامح التربية الروحية المتعلقة بالقلوب و السلوك .

* تبيان موقع التربية الروحية في الدعوة إلى الله و كذا أسسها و سماتها .

إن طبيعة البحث تُحتم علينا إتباع المنهج الاستقرائي الذي يقوم على استقراء المادة العلمية من المصادر و المراجع و ترتيبها و وضعها في المكان المناسب حسب خطة البحث ، و كذا المنهج التحليلي لاعتمادنا عليه في تحليل المادة العلمية .

2. التربية الروحية مفهومها و أسسها و سماتها عند البوطي

1.2 . مفهوم التربية الروحية و موقعها في الدعوة :

أ/ مفهوم التربية الروحية:

* التربية عملية وجدانية متواصلة يُبَنَّى منها إخضاع الرغائب الشهوانية لقرارات العقل و أحكامها مهما اختلفت المظاهر العملية بها أو تطورت في حياة الأمم و المجتمعات فإن الغاية منها تظل واحدة لا تختلف ألا و هي إخضاع السلوك الإنساني لما يقضي به المنطق و العقل.¹

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، ملامح تربوية في السيرة النبوية، موقع نسيم الشام، 2010/12/11م، ص01.

* التربية هي ترقية لوجدان الطالب و عواطفه الدينية و غرس كلمة الدين في نفسه وسط هالة من التقديس و الإجلال النابعين من عاطفته و وجدانه فحسب.¹

* و أما عن الجانب الروحي عند البوطي فيقول "إذا كان المقصود بحياة الإنسان السياسية أو الاجتماعية و الاقتصادية واضحاً متميزاً لاسيما في عُرف الثقافة الجديدة و أهلها فإن المقصود بالجانب الروحي منها لا يزال شيئاً يكتنفه الغموض بل قد يطوله الجُمود و الإنكار فرغم أن دلائل الروح و وجودها قد سطعت في العلوم و الاكتشافات الحديثة تظل طائفة كبيرة من الناس تجحد الروح و تنكرها و تعزو جميع ثمارها إلى علم وظائف الأعضاء في جسم الإنسان و قد تستعمل كلمة الروح أو الروحية أو الحياة الروحية في بعض الأحيان على سبيل المجاملة عندما تقتضيهم الظروف"²، و يشير أيضاً للجانب الروحي بأنه الصلة الداخلية للمؤمن بالله و ارتباطه النفسي و العاطفي به تعالى من حيث الإيمان و الحب و الإخلاص و ما يرافق هذه المعاني الثلاثة الرئيسية من خوف و رجاء و تواضع.

* و عليه يمكن صياغة التعريف الإجرائي للتربية الروحية عند الإمام البوطي بأنها الصلة الداخلية للمؤمن بالله تعالى و ارتباطه النفسي و العاطفي به تعالى من حيث الإسلام و الإيمان و الإحسان و ما يرافق هذه المعاني من حب و خوف و رجاء لينصبغ بذلك سلوك المسلم في تعامله مع الله و الناس و نفسه ، و قد صاغها الإمام البوطي بقوله "التربية أو التزكية مهما تنوعت مظاهرها و أساليبها تلخص في ترويض الوجدان الإنساني ابتغاء تطويعه لمقتضيات القرار العقلي"³.

ب/ موقعها في الدعوة:

إن الاهتمام بالتربية الروحية في مجال الدعوة يُحتمُّ علينا إعطاؤها أهمية بالغة دون إهمال الجوانب الأخرى ضمن الاهتمام العام بتربية و بناء الشخصية الإسلامية من جميع جوانبها فكرياً و روحياً و سلوكياً و ذلك لإحداث التغيير الاجتماعي في أوضاع الناس لتتلاءم مع الإسلام. و للعناية بالتربية الروحية في مجال و حقل الدعوة مبرر و هما :

أولاً: إن الإصلاح الاجتماعي لا يتم من وجهة النظر الإسلامية إلا من خلال الإصلاح الفردي و لن يصلح حال الجماعة إلا بصالح الفرد.

ثانياً: مبرر الاهتمام الإسلامي بالتربية الروحية و بناء العلاقة مع الله لما فيه من تعرض للإغراءات و الضغوط و المثبطات ، لهذا فالعناية بالتربية الروحية ذات علاقة وثيقة باستقامة المسير نحو الله تعالى إذ ليس من الهين أن تستقيم مسيرة العاملين في سبيل الله على الخط الذي يرتضيه و لأن الحضارة و المفاهيم الاجتماعية المادية تدعوهم للانحراف كما تتقاذفهم الأهواء الشخصية من هنا و من هناك قد تتجمع و تظهر في صيغة ثقافية تعمل على انحراف المسيرة و تمييع الشخصية الإسلامية الأصيلة و تهوين الارتباط بالله" و لهذا كله تعد التربية الروحية شرطاً ضرورياً للتعالي على كل هذه العوامل و الانفلات عن تأثيراتها و لأن الانفصال عن الناس و حضارتهم و عن أهواء النفس و شهواتها لا يتم إلا من خلال عمل تربوي جاد يبني الإنسان فيه نفسه و يقوي علاقته بالله و يقطعها عما سواه فيعبده و لا يعبد سواه و يرجوه و لا يرجو غيره و يخافه و لا يخاف غيره"⁴، و بهذا الكلام يتضح جلياً موقع و مكانة التربية الروحية في حياة الفرد المسلم و الجماعة المسلمة.

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2018م، ط01، ص35.

² محمد سعيد رمضان البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام، دار الشهاب، باتنة-الجزائر، ط01، ص72-74 (بتصرف).

³ محمد سعيد رمضان البوطي، هذه مشكلاتنا، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2008م، ط01، ص134.

⁴ حسين معن، نظرات حول الإعداد الروحي (في الطريق إلى الله)، موقع شبكة سراج www.alseraj.net، 01 ماي 2017م، ص51.

2.2 أسس التربية الروحية:

يُفَرِّقُ الإمام البوطي بين أمرين في القرآن الكريم بين المنهج التربوي و بين المبادئ التربوية على الرغم من اشتراكهما في الإنفراد و التميز " فالمنهج التربوي هو الطريق الذي سلكه القرآن الكريم بالمسلم إلى إتباع مبادئه و التمسك بأحكامه ، و أما المبادئ التربوية فهي تلك الأحكام و النُظُم التي أرساها و دعا إليها مما يقوم على تهذيب النفس و ترفيتها في الخُلُق و السلوك كأحكام الحلال و الحرام و القيم الأخلاقية المختلفة التي دعا إليها القرآن ، كما يعتبر الإسلام في مجموعة منهاجا تربويا للذات الإنسانية المتمثلة في كل من النفس و الحسد و العقل لتصعيدها إلى مستواها الفطري الأصيل"¹ ، و يحدد البوطي رحمه الله الأسس التربوية التي يقوم عليها المنهج القرآني فيما يلي:

أولاً: المحاكمة العقلية:

التي تتألف بنيتها من جوانب ثلاثة تعريف الإنسان بذاته و اختيار أسلوب صالح لمدارك جميع الناس و الاعتماد على المناقشة و الحوار .

ثانياً: العبرة و التاريخ:

و للقصص و الأبحاث التاريخية أهمية كبرى في المجال التربوي ، و الشأن هنا في معرفة الطريقة التربوية التي يجب أن يتم نسيج القصة على أساسها ، فللقرآن منهج دقيق في ذلك يمكن أن يتلخص فيما يلي:

- 1- لا يسوق القرآن من القصة إلا ما تعلق بالغرض الذي سيقى لأجله لِتُظَلَّ الصلة مبنية بينها و بين المناسبة الداعية لها.
- 2- إقحام النصائح و المواعظ في ثنايا القصة.

ثالثاً: الإثارة الوجدانية:

من المعلوم أن الإثارة الوجدانية لا تكون عملاً تربوياً سليماً إلا إذا كان هدفها إخضاع النفس لحقائق علمية صحيحة و لمبادئ خُلُقِيَّة سليمة ، فإثارة الوجدان طريق تربوي يؤدي إلى غاية تربوية أو عملية و ليست هدفاً تربوياً مستقلاً بذاته².

و يوضح أن المنهج القرآني يراعي أموراً في استخدامه للإثارة الوجدانية و هي كما يلي:

- 1- أن لا تكون الإثارة بديلاً عن حركة العقل و حكمه بل عوناً له في حركته و نشاطه فعون له لإخضاع النفس لحكمه.
- 2- أن يعتمد أسلوب الإثارة الوجدانية قدر الإمكان على التصوير و التخيل لا على المحاكمة العقلية و النسيج المنطقي.
- 3- أن يعتمد المرابي على مزيج متكافئ من العناصر الوجدانية المؤثرة بدلاً من التركيز على عنصر واحد منها.

إذن فالقرآن الكريم يراعي في منهجه التربوي هذه الأمور الثلاثة وفق الأسس التالية:

أ/ الإثارة الوجدانية في القرآن ليست غرضاً تربوياً مقصوداً لذاته بل هو عون للعقل للسيطرة على النفس و إلزامها بأحكامه و ذلك لأن دعوة القرآن في أساسها و جوهرها تتجه للعقل و الفكر.

ب/ إن من الممكن من الوجهة النظرية إثارة العناصر الوجدانية في النفس و ذلك بالاستعانة بالعقل لتبنيه النفس إلى كوامن العاطفة و الوجدان على أمل أن تؤثر فيها فتقودها إلى حيث يراد لها أن تتجه و تسير و تظهر نتائجها على الفرد و المجتمع بسلوكها كما يسيل الافتتاح العقلي و التأثير النفسي .

ت/ الاعتماد على مزيج متكافئ من العناصر الوجدانية المؤثرة السالفة الذكر لتنوع منابع العواطف في الإنسان وفق الأصول الثلاثة التالية:

* عواطف دافعة كالفرح و الأمل و الرغبة.

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، منهج تربوي فريد، الشهاب للطباعة و النشر، باتنة-الجزائر، د.ت، ص17.

² المرجع نفسه، ص19.

* عواطف رادعة الخوف و الرهبة و الانشقاق.

* عواطف مجمدة كالإعجاب و الحب و التقديس.¹

فن القرآن الكريم استمد البوطي رحمه الله الأسس التربوية الروحية التي أخرجت الجيل الفريد على يد النبي صلى الله عليه و سلم و جعلت منهم سادة الدين و الدنيا.

3.2 . سمات التربية الروحية عند البوطي:

للتربية الروحية عند البوطي خصائص و سمات تجعله يُعرف و يتميز بها و هي:

أولاً: الاعتماد على الجهد التربوي على دعائتي الترغيب و التهيب:

و يقصد هنا بالتهيب من مغبة انسياق المعارف العقلية وراء مقتضيات الشهوات و النزوات النفسية و بالترغيب الآثار الحميدة التي يترتب على تحرير العقل و الوجدان ، ومن ثمَّ يكون التحرر و التخلص من سلطان تلك الأهواء و النزوات² فالتربية عنده مزج و جمع بين هذا و ذاك لإحداث حسن الاستجابة المتوازنة المثمرة.

ثانياً: العقلانية:

و يقصد بها الشيخ البوطي مخاطبة العقل فيسوق على سبيل المثال قوله تعالى { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا }³، ثم يعلق عليه بأنها آيات تخاطب عقل الإنسان و تأمره بأن لا يدين لعبادة أحد غير الله عز وجل و أن يخلع ما سواه ثم تطالبه بالإحسان إلى والديه بالقول الصرف... و لكن هذه الأوامر تحتاج إلى انصياع النفس و تنفيذها لإثارة عاطفية يخضعها لأمر الله و لقناعة العقل الرشيد بهذا الأمر⁴ و لا منبع غيره فالعقل مناط التكليف و انسجام أحكام القرآن الكريم و توافقها معه مفضي إلى إدراكها على حقيقتها فالاستسلام و الخضوع لها و من ثمَّ استسلام الروح و الجوارح لهيمنة العقل و سلطانه.

ثالثاً: الحب:

ينقل الدكتور أحمد بدر الدين حسون في حديثه عن معنى الحب في حياة الإمام البوطي رحمه الله مستعينا بما جاء في كتابه الحب في القرآن الكريم بكلام جميل منه "إن القلب في كل الحالات لا يهفو إلا للجمال الحقيقي و لا ينبض إلا بحب واحد لا ثاني له هو حب الله الذي فطر القلوب و أودع فيها من مشاعر اللوعة و الحب لمن هو أهل لها غير أن الشهوات التي ابتلى الله بها الإنسان تصيِّدُهُ و تَغْلِقُ أمامه الطريق و تترجم مشاعر الروح و القلب لحسابها منبثقة عن صوت قلبه و لا ينتبه إلا لضجيج شهوته التي تبرق ، فإذا اتجه القلب إلى محبة الله عز وجل فلا بد أن يقع هذا القلب في شوق المشاعر و الرؤية ذاتها فهو لا يكاد يبصر الزهرة و يشم عبيرها حتى يذهل عنها برؤية جميل صنع الله و إبداعه....."⁵.

كما ينقل الدكتور أحمد بدر حسون أيضاً في ختام حديثه عن قيمة الحب في حياة الشيخ البوطي فيقول "هذا المنهج الذي عرفت نوره من حياة شيخنا محمد سعيد رمضان البوطي و هو الذي جذبني إلى حبه و وحَّد بين قلبي و قلبه و أحسست بغيرته الراقية و هو يريد

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، نحو منهج تربوي فريد، مرجع سابق، ص 64.

² محمد سعيد رمضان البوطي، هذه مشكلاتنا ، مرجع سابق، ص 135.

³ سورة الإسراء، الآية 23.

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي، نحو منهج تربوي فريد، مرجع سابق، ص 73.

⁵ مجموعة من المؤلفين، محمد سعيد رمضان البوطي، بحوث و مقالات مهداة إليه، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2002م، ط 01، ص 173-175 (بتصرف).

أن يدعو الأمة و يوجهها إلى الوحدة حول أرق لغة قلبية تذوب أمامها الطوائف و الجماعات"¹، و تبهرها في بوتقة قوله تعالى { وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ }²، و هناك قاعدة ذهبية أرساها الرسول صلى الله عليه و سلم و حوّل بفضلها العرب و قاطعي الطريق و منتهكي الحقوق إلى بشر يضرب بهم المثل في سمو أخلاقهم و علو مكانتهم و حسن معاملتهم و دماثة أخلاقهم ، و قد جاءت في الحديث " لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا و لا تؤمنوا حتى تحابوا"³.

رابعاً: وضوح هدف التربية الروحية:

يرى الإمام البوطي رحمه الله أن الهدف الرئيسي للتربية يتمثل في تحقيق المهمة التي خلق الله الإنسان لأدائها و هي إقامة دولة الله في الأرض عن طريق تنفيذ شريعته و تخليصها مما قد يعلق بها من شوائب الأهواء و طفيليات الأغراض و الآراء حتى تنحصر عبودية الإنسان لله وحده فلا يكون بشر على آخر سلطان أو صلاحية لأي حكم أو طغيان و بتعبير مختصر هو الانضواء تحت لواء عبودية الإنسان لله و عدالة الله في الأرض ، و بالتالي فالعملية التربوية عنده تعني استهداف العوائق التي تقوم في جنبات المجتمع و تحول دون السير إلى تحقيق الهدف و مقارعتها بكل وسائل الحرب و الجهاد حتى يتذلل الطريق و يكتسي الإنسان شرف الحياة بالانضواء تحت راية العبودية و الخضوع لله رب العالمين"⁴.

و تنفر عن الهدف الأساسي أهداف فرعية يُجملها رحمه الله في أربع نقاط و هي:

- 1- العمل على إثبات العقيدة الصحيحة في أفئدة هذا الجيل على أساس متين راسخ بحيث يصبح لها سلطان و قوة في توجيههم و قيادتهم إلى حمى الدستور الإلهي العظيم المعلن عليه في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }⁵.
 - 2- ربط قانون الأخلاق بسلطان الدين و تقويمه في إطار معايير و ضبطه بحدوده حتى يكون للأخلاق معنى جوهري دائم لا يتميع مع الوقت و عواصف التقليد لأن معايير الأخلاق لم تكن نابعة من تعاليم الإسلام فإن من شأنها أن تحطم السدود القائمة ما بين الشهوات و الأهواء فتقلب الفضيلة الخلقية شيئاً فشيئاً إلى فريسة شهية بين محالب الشهوة السافلة.
 - 3- العمل على صيرورة الحكم إلى الله وحده دون غيره من العبيد.
 - 4- الكشف عن إعجاز القرآن الخالد و المتجدد أمام أفكار هذا الجيل فإنه لجدير بنا أن نعلم أن كل فتح إسلامي في صفوف الجيل المعاصر يبدأ من منابع عظيمة إعجاز القرآن الكريم⁶.
- خامساً: إيجاد توازن و انسجام بين العقل و الشهوة تهدف التربية الروحية عند البوطي إلى القضاء على الثنائية و الازدواج الشخصي لدى الفرد و المجتمع و بالتالي فهي تهدف إلى إيجاد توازن و انسجام تام بين كل من العقل و الشهوة لدى الإنسان بحيث تتكون شخصيته

¹ المرجع نفسه، ص183.

² سورة البقرة، الآية165.

³ الإمام مسلم، صحيح مسلم، دار طيبة للنشر و التوزيع، الرياض-المملكة العربية السعودية، 2006م، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون من الإيمان، الحديث رقم 93، مج01، ص44.

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي، الظلاميون و النورانيون، دار الفكر، دمشق-سوريا، ط2011، ص02، صص 127-128 (بتصرف).

⁵ سورة الحجرات، الآية 13.

⁶ محمد سعيد رمضان البوطي، الظلاميون و النورانيون، مرجع سابق، صص 130-134 (بتصرف).

من كلا العنصرين سيكون نتاج ذلك الكرامة الإنسانية في النفس و ضمان العيش السعيد ، إذن فالتربية الروحية تسعى في رأيه رحمه الله إلى إيجاد انسجام بين مكونات الإنسان الثلاثة الجسد،الروح،الشهوة- لتحقيق الأثر التربوي في حياة المسلم بانسجام هذه الجوانب في كيان الإنسان و تناسقها في هدف مشترك و السير على صراط واحد بقيادة رشيدة من العقل و معونة من حرارة العاطفة و الوجدان.¹

سادسا: إصلاح العلاقات الاجتماعية

يقول الإمام البوطي رحمه الله بأن الإسلام يسعى في تربيته الفردية و الاجتماعية إلى إصلاح الباطن أولا و ذلك بغرس العقيدة فيه و لذا فإنه يحمل معه ضمانات تطبيقه و تنفيذه عندما تتوفر العقيدة الكاملة في النفس و ذلك للسعي لإصلاح العلاقات الاجتماعية فصلاح الأخيرة مظهر جلي من مظاهر التربية الروحية و دليل صارخ على صدقها و سلامتها فالدين قول صريح و سلوك و معاملة حسنة فهو قول و عمل و عقيدة صحيحة و عبادة صادقة و خلق متين.²

3- أهداف التربية الروحية و شروط تحقيقها:

3-1. طريق تحقيق التربية الروحية عند البوطي:

يقول البوطي رحمه الله " إن من ثمار الروح المشاعر و هي معرضة من حين إلى آخر للصعود و الهبوط خلال سلم أخلاقي في كيان الإنسان و خياله ،فقد يهبط إلى مستوى من الدون و الحطة يجعل صاحبه ينزل إلى درك أشرس الحيوانات المتوحشة العجماء ، و قد يعلو إلى مستوى من المشاعر إلى أعلى ذروة ممكنة و يقيها من مزالق الانحدار إلى هاوية الشقاء و البلاء".³

تكمن الإجابة في رأي الشيخ البوطي بتحقيق الرغبة لدى المسلم في امتداد سلطان الإسلام على كيانه لينتقل من ساحة النفاق مع الله و الناس إلى ساحة الصدق معهما و السير في طرق تزكية النفس عبر مسلك المجاهدة و يلخص البوطي رحمه الله معنى التزكية بأنها السعي إلى تخفيف ضجيج الشهوات و الأهواء التي تحيط بالروح و فتح ما أمكن من النوافذ بينها وبين عالمها العلوي الذي هبطت منه و ستظل في حنين دائم إليه عن طريق تعهداها بالغذاء الذي تحتاج إليه ، و من الثابت يقينا أن الروح إذا تلقت غذاءها انتعشت و أشرقت على النفس كلها بضياء علوي يغمرها حبا لله و مهابته و هيمنت بمشاعرها و أشواقها على مكنن الغرائز في النفس بعد أن كان هو المهيمن على الروح و المحيط بها من الأطراف .

كما يرسم رحمه الله طريقا للسير على منهاج التزكية فيقول " و نحن لم نرسم هذا الجهاد من خلال عرض فلسفة عميقة ذات دياجعة و إطار من خلال اقتراح منهج حركي تضبطه التنظيمات الشكلية و تتحرك في داخله الألسنة المتناقشة و الأعضاء المتهاجرة ، بل ستبصره من خلال ما هو أبسط فهُمَا و أقرب منا لا.... ستبصره من خلال أوضح الآيات التي نقرأها صباحا و مساء في كتاب الله غير أن كثيرا منا عن تزيانها ساهون معرضون".⁴

و هنا يظهر جليا وضوح و محور و مدار التربية الروحية عنده إذ يقوم على حسن التعامل مع صلة الأرض بالسماء و سبيل الهداية الأولى معجزة النبي صلى الله عليه و سلم ألا و هو القرآن الكريم كما هو الحال مع كل جزئيات مشروعه الإصلاحية و النهضوي .

و يعرض رحمه الله في وصفة علاجية رائعة سبل النجاة للاستغلال في الربوع الوارفة في كنف روضة التزكية في ست نقاط و هي:

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، الظلاميون و النورانيون، مرجع سابق، ص 139-144 (بتصرف).

² المرجع نفسه، ص 145.

³ محمد سعيد رمضان البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام، مرجع سابق، ص 73-74 (بتصرف).

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي، الظلاميون و النورانيون، مرجع سابق، ص 175.

أولاً: تفكر الإنسان في ذاته و مصيره:

يفكر الإنسان في خلقه و مصيره و مراقبة الله له في كل آن و حين و إيقاظ العقل لذلك عند كل غفلة و نسيان غير أن التفكير يحتاج إلى موضوع يشغل به الذهن و يطوف حول العقل و هنا يرشد رحمه الله إلى ضرورة العزلة الشرعية متأسيا بالرسول صلى الله عليه و سلم محذرا في الوقت ذاته من انحراف العزلة إذ جاء في كلامه أنه ليس من دعاة الإنعزال عن المجتمع و العيش بعيدا عنه فليست هذه فطرة الإسلام و لا وظيفة المسلم.

ثانياً: إصلاح القلب

و هذا مدار كتاب شرح الحكم العطائية و لهذا سأترك الحديث عنه و تفصيل الكلام فيه في الجزء المخصص له.

ثالثاً: التزام ورد منتظم من التلاوة و التسبيح و التهليل و الاستغفار:

فهو لا يعلم خلافاً بين أهل العلم في أنه لا بد للمسلم أن يتخذ لنفسه وظيفة دائمة من هذه الأعمال أما عن أثر ذكر الله عز وجل في تحرير النفس من مشكلاتها و آفاقها فحدث عن ذلك و لا حرج.....إنه العلاج الأعظم بل الأوحد لتزكية النفس و كنس كل ما قد يترسب فيها من آفات الأنانية و الحقد و الحسد و التعلق بالدنيا....وهذا سبيل الإحسان.

رابعاً: تجنب أكل الحرام:

فإن الجسم الذي رُيَّ على الحرام تكمن فيه على الغالب نفسٌ ميالة للانحراف و الانفلات من حدود الله مهما انضبطت داخل حدوده الظاهرة و يظهر الفرق شاسعاً بين عدد المسلمين القائمين على العبادات من صلاة و غيرها و بين المسلمين المتعففين عن أكل الحرام.

خامساً: كثرة الدعاء شدة التضرع إلى الله:

و هذا العلاج بحد ذاته عبادة بل هو مخ العبادة ولُبُّها ، بل هو مخ العبودية التي تُعَدُّ أرقى مراتب القرب لله ، و هنا يشير إلى الذين يهونون من أمر الدعاء مفندا كلامهم بالاستجابة لو عد الحق الذي لا يخلف وعده مصداقاً لقوله تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }¹ و بهذا نوكل الأمر إليه و نؤدي وظيفة الخضوع لحكمه و الإيمان بوعده و في هذه الحقيقة كل أعمال البر و الإحسان و كل الطاعات و القربات مثل قيام الليل و المداومة على المحاسبة و المراقبة ، و كذا الأجواء الإيمانية التي يجدها المسلم في تلمُّس الاعتكاف على تلك السنة المهجورة و هي الدعاء. سادساً: محبة الله و رسوله:

يرشد الإمام البوطي رحمه الله إلى أن حبَّ الله منبع الألفاظ و النعم متسربة إلى كيانه أو متألفة أمام عينيه و لهذا سيلهف قلب الإنسان للحب الحقيقي لصاحب هذه الألفاظ و لِقَاضٍ شوقاً إلى لقاءه و يصبح قلبه وعاء حب لمولاه الأعظم ، و إذا تتابعت هذه البقطة الفكرية فإنها تأسر القلب و تذيب إنسانية الإنسان حياء من صاحب الألفاظ العجيبة و حبا له و اشتياقاً إليه فتستحي أن يراك مولاك شاردا عنه متقلبا في أغمار أهوائك مستسلما لرعونات نفسك ، و من ثمَّ فإنه لا يدعك تفارق الدنيا إلا و قد جذبك إلى حماه و دعاك إلى الاصطلاح معه و نبهك إلى عظيم حبه لك و بالغ عنايته بك بنداء الحب² مصداقاً لقوله تعالى

¹ سورة البقرة، الآية 186.

² محمد سعيد رمضان البوطي، الظلاميون و النورانيون، مرجع سابق، صص 176-183 (بتصرف).

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ }¹.

و أما في حب الرسول صلى الله عليه و سلم فيقول البوطي رحمه الله "اقرأ ما تشاء من صفحات أي كتاب في شمائل هذا الرسول العظيم تجد نفسك أمام المثل الأعلى و النموذج الأتم للإنسانية السامية الصافية عن الشوائب و للذوق الرفيع في مقاييس المعاملة و السلوك و للإحساس المرفه في أصحابه ، بل أمام الناس و كل هذه الأمور تعتبر نواويس الحياة بسلطانها القوي المهيمن على القلوب و هذا الذي يفعله الحب بنفوس الناس و من العمل الذي يحملهم عليه...."².

2.3 شروط بناء الجانب الروحي عند البوطي و مصادره:

أولاً: شروط بناء الجانب الروحي عند البوطي:

من الواضح أن الجانب الروحي في منهج البوطي رحمه الله جزء لا يتجزأ من الحياة الإسلامية يتأثر بها و يؤثر فيها ، لهذا فعودة الإسلام إلى إدارة دوايب الحياة و بعث الحضارة الإسلامية من جديد لا شك له انعكاسه الإيجابي على نمو و تطور الجانب الروحي، و قد ذكر البوطي رحمه الله أربعة شروط لبعث الدين من جديد و هي:

أولاً: وجود الرغبة الكافية لدى المسلمين في السعي نحو استعادة الحضارة الإسلامية.

ثانياً: القضاء على عوامل التفرقة.

ثالثاً: الاستقرار النفسي و الفكري بالقضاء على عوامل الانبهار بالحضارة الغربية و السعي الأعمى لتقليدها.

رابعاً: التلاحم و الثقة بين قطاعات الأمة أي بين ما يشمل الحكام و سائر فئات الأمة على السواء.³

و على غرار هذه الشروط الأربعة الموضوعية لبعث الدين يضع البوطي رحمه الله شروطاً لبناء الجانب الروحي حتى يؤدي ثماره اليانعة و هي:

1- العلم: فلقيام بالعبادات المختلفة آداب و قيود لا يجوز الخروج على شيء منها و لا يجوز فيها إلا الإتيان دون زيادة و لا نقصان و للسبل التربوية في ترويض النفس قيود و شروط ثابتة في مصادر الشريعة الإسلامية و لا يجوز للمربي تجاوزها أو الإعراض عنها و هنا يشير إلى كشف تسريبات و بدع أهل الزندقة ممن أضمر السوء و الكيد للإسلام.

2- الابتعاد عن حظوظ النفس: و اتخاذ هذا المسلك نفسه يعتبر سبيلاً جديداً للوصول إلى الكثير من أساليب النفس و أهوائها.

3- الاكتفاء بما جاء في الكتاب و السنة: فنستلهم منهما منهاج التزكية النفسية و التربية الوجدانية ثم نمارسها وظيفة مستمرة ثابتة، فان ذلك خير عون على إشراق القلب و تطهير النفس من كل الأمراض و الرعونات.⁴

4- الإنسجامات بين مكونات الكيان الإنساني (الحسد و الغرائز الحيوانية و الروح العلوية): فتفسير في اتجاه واحد نحو هدف مشترك يقودها العقل الرشيد بوقود العاطفة و الوجدان و قد حاول حسين معن تلخيص كلام البوطي رحمه الله في ثلاثة شروط و هي:

"أ/ الشرط التكويني: وجود قوانين نفسية تحكم العلاقة بين الجانب الروحي و الصلة النفسية بالله .

ب/ الشرط التشريعي: و هو وضوح الوسائل و المواقف التي تؤدي إلى تلك النتائج النفسية بحكم القانون النفسي المغروس فطرياً.

¹ سورة الحديد، الآية 16.

² محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية، ط25، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2003م، ص283.

³ محمد سعيد رمضان البوطي، الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، ط01، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2014م، ص204.

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي، الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، مرجع سابق، ص ص 204-211 (بتصرف).

ج/ شروط المبادرة الفردية: لمعاناة هي سبيل التربية الروحية و تبنّيها و إنتاجها".¹

ثانيا: مصادر التربية الروحية عند البوطي رحمه الله:

من خلال تتبع آثاره المختلفة رحمه الله وقفنا على تعدد و شمول المصادر التي اعتمدها في جميع جوانب مشروعه الدعوي ، و سبب ذلك يعود إلى رسوخ قدمه في العلم من جهة و إلى رجاحة عقله من جهة أخرى و هي نفس المصادر التي اعتمدها في التأسيس للتربية الروحية في دعوته و الملاحظ عنها التعدد و الشمول التمسنا فيها حقيقة و براعة توظيفها و سلامة الاستدلال بها ، و لهذا سأكتفي بذكرها دون شرح و تمثلت مصادره في:

1- القرآن الكريم و السنة المطهرة .

2- العقيدة الإسلامية الصحيحة .

3- التاريخ الإنساني و تجاربه (حياة الصالحين، التاريخ الإسلامي، التاريخ الإنساني العام).

4- أحداث الواقع و مجرياته.

5- الاستدلال العقلي السليم.

3-3 أهداف التربية الروحية:

ذكرنا سابقا في عنصر وضوح هدف التربية الروحية المنضوية تحت عنصر سمات التربية الروحية عند البوطي رحمه الله من هذا البحث أن الهدف الأساسي للتربية الروحية هو الانضواء تحت لواء عبودية الإنسان لله و عدالة الله في الأرض ، و هذا الهدف الأساسي تفرعت عنه أهداف فرعية يختزلها البوطي رحمه الله في الإيمان بالله تعالى القائم على إيقاظ دعائتي العقل و الوجدان فيقول "فإن الإيمان بالله عز و جل لا يستقر و يثبت لدى الإنسان إلا بقوة من دعائتي العقل و الوجدان معا فلا بد أن يغرس وجوده في ساحة العقل و براهينه أولا، ثم لابد أن تغدّى أصوله برعاية العاطفة و الوجدان شأنه في ذلك شأن الشجرة إذ تغرس في تربة صالحة أولا و تتعهد بالرعاية و السقيا ثانيا فكذا ذلك الإيمان الذي غرسه في كيانك العقلي قناعة و يقينا ثم لم تغدّ و تنعشه بمشاعرك الوجدانية و تركت هذه المشاعر تصبو إلى الرغائب و الشهوات النفسية ، فانه لا جرم يذبل ثم يخنق في أغوار تلك الرغائب و الشهوات الجانحة ، و من أجل هذا ترى البيان الإلهي لا يتحدث عن صفات المؤمنين إلا و يضع اليقظة الوجدانية في مقدمة هذه الصفات، قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }² ، و المعلوم أن وجل القلوب و خشوعها مظهر من مظاهر ارتباط مكن الوجدان الإنساني بالحقائق الإيمانية الجاثمة في العقل و أثر من آثار تفاعله بها"³.

و لهذا فللتربية الروحية فوائد جمة و من بين أهدافها و آياتها على المستوى الجماعي و تماسك الصف المسلم الذي يعتمد على وحدة الأهداف و وحدة المنطلقات و وحدة المشاعر و وحدة التعاطف القلبي ، فالصف يتعرض إلى عوامل التفتيت و التجزئة باستمرار و هذا بسبب اختلاف الآراء و المصالح الشخصية التي تغلب على المصلحة العامة و كذا اختلاف الأذواق و المشاعر ، ولهذا تعمل التربية الروحية على:

أولا: توحيد المنطلق النفسي للمؤمنين في العمل (الدوافع و الأهداف) و حب الرسالة و الرغبة في نشرها مقابل الرغبات الشخصية.

¹ حسين معن، نظرات حول الإعداد الروحي، موقع شبكة سراج www.alseraj.net، مرجع سابق، ص 284.

² سورة الأنفال، الآية 02.

³ محمد سعيد رمضان البوطي، الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية، مرجع سابق، ص ص 197-198 (بتصرف).

ثانيا: الحب في الله و حب المؤمنين و الأنس بالأخوة فيما بينهم و المشاركة الوجدانية.

ثالثا: التقيد بالخلق الإسلامي في التعامل .

رابعا : الحرص على المصلحة الدينية و الخوف على الرسالة و الدعوة.

هذه المعاني الأربعة و ما يتفرع عنها هي تماسك الصف المسلم و حصانته عن التنازل و التصدع و هي معان لا ينيها سوى الإيمان بالله و الإخلاص له تعالى و حبه الذي ينبسط على المؤمنين و كذلك طاعته و الصبر عليها في مواجهة الأهواء الشخصية و مشاعر الأنا و الاستقلال ، و هذه الأمور هي جوهر البناء الداخلي لروح المؤمنين و بالإضافة إلى هدف التماسك تعتبر التربية الروحية عاملا أساسيا في الثبات على الدين فهناك صلة واضحة بين التربية الروحية و الثبات على الدين في الأيام الصعبة و امتصاص المحن و الحرب النفسية و الاضطهاد الجسدي و النفسي و وسيلة للصمود في المحن و البلاء و فتنة العذاب و المواجهة.

و في الختام تتضح جليا المكانة و المرتبة التي تحتلها التربية الروحية في منهج البوطي رحمه الله و سيصدق هذا الحكم من خلال تتبع شرحه للحكم العطائية و إسقاطاتها الواقعية و استجلاء معالم و ملامح التربية الروحية و استخداماتها الدعوية.

4- ملامح التربية الروحية عند البوطي من خلال كتابه شرح الحكم العطائية:

من خلال القراءة المتمعة في كتاب شرح الحكم العطائية و تتبع الشرح المستفيض للإمام البوطي لها وقفت محاولا تلمس أهم ملامح التربية الروحية التي خطتها البوطي رحمه الله لتكون سبيلا للنجاة .

4-1- ملامح تتعلق بأعمال القلوب:

يرصد البوطي رحمه الله عدة ملامح متعلقة بقلوب الناس و أعمالها فيذكر منها :

1- الإخلاص:

لا يُقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجه الكريم و هذا الإخلاص له ثلاثة شروط أوردها البوطي رحمه الله ملخصة في شرك الرياء بوجوه عدة و هي:

" أولا: التنزه عن شائبة الرياء أي قصد التحبب بالطاعة إلى الناس أو قصد الوصول بها إلى مصالحه منهم.

ثانيا : التنزه عن التصنع في العبادة و إبرازها في مظاهر و هيئات محبة ابتغاء لفت الأنظار.

ثالثا: التنزه عن العُجب و هو رؤية النفس في العمل و ينسب إلى نفسه مزايا الأعمال الصالحة التي يوفقه الله إليها"¹ ، و تلتقي الشوائب الثلاثة السابقة في آفة واحدة و هي إشراك شيء آخر مع الله في العمل الذي يفترض أن يكون خالصا لوجهه لذا حرص العباد أن يُتبعوا أعمالهم بقرائن القبول في الدنيا حتى يطمئنوا على حصاد أعمالهم و لعلهم صرفوا الجهد في كشف خيوط قبول الأعمال عند الله فوجدوا عماد الأمر هو الإخلاص لله وحده ، و كما يكون الإخلاص سببا لصلاح حال الفرد و شرطا له في سلامة علاقته مع الله عز وجل فانه شرط كذلك لصلاح الجماعة المسلمة ، و لهذا فتدين الفرد أو الجماعة إذا تزين و تخلق بالصدق و الإخلاص ظهرت علاماته على السلوك و التصرف و الواجب على المسلم سلامة الإخلاص و عليه قياس صدقه باستمرار و هنا يقول البوطي رحمه الله " و مقياس الدلالة على ما يعكس صفو الإخلاص لدى العبد أن ينظر إلى القصد الآخر الذي تسرب إلى قلبه شريكا مع قصد مرضاة الله بقطع النظر عن نوع الشريك

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، دار الفكر، دمشق-سوريا، ط01، 2003م، ج04، ص376.

فذلك دليل قاطع على غياب الإخلاص¹ ، فصلاح حال المسلم و تمسكه بمحاسن الشرع و سبيل الصلاح هو الأخذ بالتدرج في الرتب و المقامات التي وضحها البوطي رحمه الله في المقامات التالية:

"المقام الأول: هو اكتساب سلامة القلب مع الله عز وجل عن طريق التوبة و أنه يوجد في الخلق من لم يفرط في جنب الله. المقام الثاني: هو مقام الصبر و هو من مستلزمات التوبة و هو لون من ألوان الجهاد و هو الصبر عن الاستجابة للأهواء الجاحمة و صبر على أداء الواجبات و القربات .

المقام الثالث: و هو مقام الرضا و هو من أهم ثمرات الصبر و نتائجه فإذا ثابر المؤمن و صبر و بلغ درجة الرضا لعلمه بالأجر الذي أعده الله له و سبيل تحقيق الرضا هو هيمنة محبة الله على القلب"².

و هذه مقامات الإنزال التي تحدّث عنها ابن عطاء الله السكندري في الحكمة السادسة و الأربعين القائل فيها " حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال و حسن الأحوال من نتائج التحقق من مقامات الإنزال"³.

هذه مقامات الإنزال التي تحدّث عنها ابن عطاء الله السكندري و لخصها البوطي رحمه الله مفصلاً بأن القربات الظاهرة لا تُقبل إلا بالإخلاص في أدائها و صفائها من شوائب العُجب و الرياء و الغفلة و أنها لا تتحقق إلا ببقاء الأحوال و خلوة القلب من التعلق بالأغيار ، و خلاصة الكلام بأن كل هذه القربات ينال بها المسلم مرضاة الله تعالى تتألف من عمل و قصد ، فالقصد هو الإخلاص لوجه الله و العمل المنفّذ لو ارتبط بقصد غير سليم فهو لاغ و باطل في ميزان الله و حكمه.

2- الخوف و الرجاء:

تفرقت دروب السالكين لطرق الله عز وجل بين سبيلي الخوف و الرجاء مهما اختلفت وجهتهم في التربية الروحية و وسائل رفع درجات الإيمان ، فالخوف و الرجاء كما يعبر عنهما بالبسط و القبض و هنا يبين البوطي رحمه الله معناهما فيقول " البسط هو حالة من الفرح و الاستبشار و الطمأنينة إلى مغفرة الله و عفوّه أما القبض فهو حالة من الخوف و الوجل و لا يتبين من مصيره الذي هو مقبل عليه إلا العقاب و النكال لا سيما إذا تذكر تقصيره و راجع أيام غفلته و شروده"⁴ ، و يُعَلَّبُ البوطي الأخذ بحالة القبض على حالة البسط حيث يعتبر أن البسط ينبثق من تزايد الأمل بمغفرة الله و صفحه حتى يتغلب على مخاوف العقاب على التقصير و سوء الحال مزلة قدم و مبعث لحظوظ النفس ، و هنا يقول ابن عطاء الله السكندري في الحكمة الثانية و الثمانون القائل فيها " البسط تأخذ النفس منها حظها بوجود الفرح و القبض لا حظ فيه"⁵.

و مع تبيان البوطي رحمه الله لكل من القبض و البسط فإنه يعرج لمقام آخر بأن العارفين بالله لا يركنون إلى هذين الحالين و هم أشد فرار منهما و ذلك بأن البسط يتناسب مع حظوظ النفس و هو أقرب للبحث عن الطمأنينة و هذا يورث الكسل عن القيام بالواجبات المنوطة شرعاً و قد نفتح باب وسواس الشيطان و تُخْرِجُ صاحبها من حدود الأدب و تفضي به إلى القنوط و اليأس ، و يرى البوطي رحمه الله أن الأفضل هو المزاجية بينهما فيقول " يظل المسلم مشدوداً بكل من حبل الخوف و الرجاء إلى الله عز وجل دون أن يتغلب

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج03، ص350.

² المرجع نفسه، ج02، ص ص 182-186 (بتصرف).

³ ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، إعداد و دراسة عبد المقصود هيكمل، مؤسسة الأهرام، القاهرة-مصر، ط01، 1988م، ص54.

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج03، ص08.

⁵ ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص60.

الواحد منهما على الآخر مهما ظهرت أو اختفت ما بينه و ما بين مصالحه الدنيوية العوامل و الأسباب"¹، و من لوازم القبول اقترانه بالعمل و إلا فهو أمنية و هذا ما حققه ابن عطاء الله السكندري في الحكمة الثامنة و السبعين القائلة "الرجاء ما قارنه العمل و إلا فهو أمنية"²، و هنا مثلاً لو عرضنا حال المستهتر في ارتكاب المعاصي و حال الراغب في الاستقامة المتألم من ضعف إرادته فالأول يزداد طمأنينة في قلبه في حمئة المعاصي بعد سماعه لأحاديث الرجاء و البشارة مثل الحديث القدسي (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل و النهار و أنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم)³، و أما الثاني فهو يزداد ألماً من سوء حاله عندما يسمع المبشرات فيذرف دموع الحياء من ربه و قد جاء في وصف هذا الأخير على لسان البوطي رحمه الله "إن كل من اصطبغت مشاعره بحقيقة العبودية لله عز وجل لن يكون رجاءه لمغفرة الله و صفحه إلا حافزاً لإصلاح الحال و تجديد التوبة و العزم على العمل و الاستقامة"⁴، فهذا هو الرجاء الحقيقي الذي يثمر عملاً صالحاً و إيماناً صادقاً يعصم الفرد عن الزلل .

3- الدعاء:

و يذكر ابن عطاء الله السكندري في الحكمة السادسة و الستين بعد المائة " لا يكن طلبك تسبياً إلى العطاء منه فيقل فهمك عمه و ليكن طلبك لإظهار العبودية و قياماً بحقوق الربوبية"⁵، و هنا ينقل لنا البوطي رحمه الله كلاماً جميلاً للشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله " لا يكن حظك من الدعاء الفرح بقضاء حاجتك دون الفرح بمناجاة مولاك فتكون من المحجوبين"⁶، و في الجواب عن الاستشكال الذي قد يقع فيه الناس من كون العلاقة الرابطة في العادة بين الدعاء و الحاجة علاقة السبب بالمسبب فيقول البوطي رحمه الله "و الجواب عن هذا الإشكال من عدة وجوه هي:

أولاً: هذا الإشكال له مبرر و سايغ إذا كانت حاجة الإنسان جزئية أو عارضة و لكن حاجة الإنسان إلى الله كلية و دائمة في كل وقت و حين.

ثانياً: أن المسلم إذا أذعن بعبوديته التامة لله و أعلن الخضوع و التذلل في محرابه أقرّ بضعفه و عجزه و فقره و حاجته الدائمة له في كل شيء.

ثالثاً: إن العبد مهما ضايقته الآلام و اشتدت المصائب فإنه يثق بمقتضى عبوديته لله و إيمانه بحكمته المطلقة بأن ما اختاره الله له هو الخير فيكثر الدعاء دون انتظار الجواب"⁷.

و لهذا فالدعاء عبادة مقصودة لذاتها فالسالك إلى الله يسعى إلى التعبد لله بخالص الدعاء فالواجب على السالك دروب الله أن يحسن التأدب معه عز وجل حين يرفع يديه إليه بالدعاء و أن يحذر من الوقوع في مغبة الظن بأن دعاءه ينبه الله و يذكره بحاجته و مسألته فهذا من محض السيئات و يوصل بصاحبه لسوء الأدب مع الله.

وهنا يلفت ابن عطاء الله السكندري نظر المسلم إلى حقائق و آداب التعامل مع الدعاء في نقطتين و هما:

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج3، ص30.

² ابن عباد النفري الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص60.

³ الإمام مسلم، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب البر و الصلة و الآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث 2577، مج4، ص1995.

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج2، ص488.

⁵ ابن عباد النفري الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص73.

⁶ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج4، ص157.

⁷ المرجع نفسه، ج4، ص ص 153-156 (بتصرف).

"الأدب الأول: أن يلفت نظر السلم الصادق في إسلامه إلى أن عليه أن يتقرب إلى الله بالدعاء لأنه عبادة و لأنه بطاقة الذل و المسكنة والعجز و يقدم نفسه على أساسها إلى مولاه عز وجل خاضعا لأمره راضيا بقضائه سواء استجيب دعاؤه أم لم يستجب. الأدب الثاني: أن يحذر من أن يتخذ من طلبه الذي يتقدم به إلى الله مجرد سبب فيما يتصوره للحصول على مطلوبه".¹

و هنا يشير البوطي رحمه الله موضحا طريق توجه العبد لربه بالدعاء المبرور فيقول "إن سبيل من يعود إلى نفسه فيرى أنه أهل لمقت الله و ابتلائه لما يعلم من تقصيره فيقبل إلى الله المعترف بذلك فيسترحه و يسأله العفو و الصفح و من ثمَّ يسأله أن يعطه سؤله فإن جاءته الاستجابة شكر و إن لم يجد استجابة أيقن أن الله إنما اختار له بذلك ما هو خير"²، و هذا هو الواجب عند القيام بعبادة الدعاء الموعول في تحقيق معنى العبودية لله ، فالمتجه بالدعاء إلى الله عز وجل عليه بأمرين:

أولاً: الاتجاه بالدعاء إلى الله اتجاه العارفين الذين لا يروا لأنفسهم حق الطمع في أي شيء مما وعد الله به الصالحين لإحساسهم البالغ بفضل الله عليهم بتقصيرهم نحوه.

ثانياً: إحساس الداعي بالعجز عن المثل بين يدي الله في محراب العبودية الصادقة و الخالصة عن الشوائب .

4- التوبة:

إن التوبة إن لم يصح منطلقها و يتضح مصدرها فهي معرّضة للإخفاق و الفشل فمصدرها هو محض العبودية لله التي تقتضي تنفيذ الأمر الرباني كما أوجب و ترك المنهي عنه و المحرّم و مع هذا الاتصاف بمطلق التذلل و الافتقار لله تعالى و الأدب معه الذي يرتقي بصاحبه و يجعله مُعْرِضًا عن المطالبة بالأجر مقابل أعماله و إنما يسترحه و يستعطفه بمقتضى كينونته البشرية الضعيفة المحتاجة راجيا عفوه و رحمته.

و يبين البوطي رحمه الله سبيل التوبة فيقول "العاصي الذي جاء يطرق باب الله متأملا صفحه و مغفرته أيعقل أن يفعل ذلك و هو مصر على معصيته مستريح إلى شروده و آثامه لا بل من يطلب منه أن يظل راجيا لكرم الله و عفوه و مغفرته متمسحا بأعتاب باب التوبة إذ لا يعقل أن يطرق العاصي باب الله راجيا صفحه و مغفرته و هو لا يزال مصرا على معاصيه مطمئنا لآثامه"³ ، و مما جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم فيما يحكيه عن ربه عز وجل (أذن عبد ذنبا فقال اللهم اغفر لي ذنبي و فقال تبارك و تعالى أذن ذنبي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب و يأخذ بالذنوب ثم عاد فأذن ذنبا فقال أي رب أغفر لي ذنبي فقال تبارك و تعالى عبدي أذن ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب و يأخذ بالذنوب...."⁴.

فالتوبة هي السبيل إلى بقاء الرجاء في القلب و زيادة التوبة في القلب تكون على قدر الأمل في مغفرة الله و الندم على الذنب والطمع في صفح الله و بهذا تبدو قوة الارتباط بين التوبة و الرجاء ، فالتوبة لا بد منها و هي السبيل إلى بقاء الرجاء مزدهر في نفس العاصي أما المستمر في عكوفه على الآثام و الذي لا يخطر منه على بال ، ويشرح البوطي هذا المعنى المبين في الحكمة السابعة و الأربعين بعد المائة لابن عطاء الله السكندري و التي قال فيها "إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك فقد يكون ذلك آخر ذنب قُدِّر عليك"⁵، و يعرج البوطي في شرحها "إلى أن العاصي كثير ما يتوب إلى الله و يعزم على الاستقامة فتزل به القدم ثانية و تغلب عليه نفسه و غرائزه فيقع في المعصية من حيث لا يحتسب فيتوب إلى الله ثانية و يتكرر الأمر مرات و مرات، و هنا يتسرب الشيطان إلى

¹ المرجع نفسه، ج4، ص160.

² محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج4، ص198.

³ المرجع نفسه، ج01، ص34.

⁴ الإمام مسلم، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب و إن تكررت الذنوب، رقم الحديث 315، مج 41، ص03.

⁵ ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص70.

التائب ليويسوس له أن توبته زائفة و أن وعوده كاذبة و أن صلاح حاله ميؤوس منه فالأفضل هو الركون لحظوظ النفس و لهذا فالعاصم من هذه الوسوسة هو العلم بأن المعاصي مهما تكررت فعلاجها التوبة الصادقة في كل مرة و أن المعاصي تدوب و تتمحي في أعمار عفو الله و صفحه"¹.

ونتلمس حقيقة هذا الشرح للبوطي رحمه الله واضح الدلالة من القرآن الكريم و السنة النبوية، قال تعالى { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) }²، و كلمة أواب هي صيغة مبالغة من آيب أي راجع و العبد لا يكون كثير الرجوع إلى الله إلا إذا كان كثير الشroud عنه و من الأحاديث النبوية ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول(قال الله تعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني و رجوتني غفرت لك على ما كان منك و لا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم لو أتيتني بتراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأنتيك بترابها مغفرة"³. و البوطي رحمه الله لا يستقي هذا الفهم من الخيال بل هو موروث عن سلف الأمة الذين كانت لهم مطية في درجات العارفين الربانيين ، و بهذه التوبة النصوح و المتجددة يربط العبد بها العهد و توثقه مع الله تعالى و يسير في موكب الإيمان بخطى ثابتة.

5- الزهد:

و مما جاء في معنى الزهد بأنه الإعراض عن كل ما عدى الله عز وجل و عزوف النفس عن الجاه و المال و الأهل و الولد و سائر متاع الدنيا و بمعنى آخر انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فهذا العزوف يستلزم ترك الدنيا التي يحرص عليها الإنسان و يجبها ، وقد جاء في شرح الحكمة الثانية و الخمسين و هي " إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا ليستملك من الأغيار و يحرك من رق الآثار أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك"⁴، وفي هذه الحكمة إشارة لمعنى الزهد الذي سرى بفعل الواردات إلى العقول ثم استقر عاطفة و وجدانا في قلوبهم فوجّه القلب و العقل إلى الآخرة و صرفها عن الدنيا و حررها من رق الآثار الكونية لتربطها بالمكنون فيكون الناتج سمو عن التعلق بالأغيار إلى محبة الواحد القهار و هذه هي حقيقة الزهد لأن حب الدنيا و التعلق بها رأس كل خطيئة و من استحوذت الدنيا على قلبه لم يستقم له أمر.

و يزيد البوطي رحمه الله في توضيح حقيقة الابتعاد و الزهد و العزوف عن الدنيا "و أن عزوف النفس عن الشيء إنما هو عزوف عن حبه و التعلق به و جعله غاية مرجوة ، و المسلم يستخدم كل شؤون الدنيا التي يُقبل عليها فيما قضى الله أن تستخدم فيه فهو كادح في سبيل تحصيل مستلزمات الحياة و لكن غير مشدود برغائبه و اهتماماته نحوها و بصورة أدق تطهير القلب من حب الدنيا و ما حوت من متاع و لا حرج إذا طهر القلب منها و من أهوائها و من التعلق بها و هذا هو الترك"⁵، و لهذا فالتحرر من أسر الدنيا و أهوائها و العزوف عن لذاتها لا ينبع إلا من قلب توقدت فيع شعلة الإيمان و برق في حناياه النور الرباني و حينها تعزف النفس عن الدنيا لما ترى من ضالة شأنها و يفرغ القلب من التوجه إلى الدنيا و التعلق بها بعد شروق محبة الذات الإلهية ، فالسبيل الذي إذا سلكه المسلم انتهى به إلى معرفة حقيقة الدنيا مما يؤهله إلى الزهد فيها و إلى الترفع عن أهوائها و هذا السبيل يمكن أن يوجه المسلم نظره و آماله و أفكاره على الآتي من

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج4، ص45.

² سورة ق، الآية 31-32.

³ الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، شركة و مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1975م، ط02، باب فضل التوبة و الإستغفار، حديث رقم 3540، ص548.

⁴ ابن عباد النفري الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص55.

⁵ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج02، ص ص 173-174.

الزمن و ينظر بتأمل من خلال ذلك إلى المصير الذي سيؤول إليه صغرت في عينه المطامع و انتفى من قلبه حب الدنيا و إلى ما كان من ذلك سبيلا إلى تلك الغاية و المال.

و مما سبق يمكننا أن نخلص إلى أن البوطي رحمه الله أعطى مفهوما جديدا للزهد و هو زهد القلب و هو لا يتعارض مع ولوج غمار الحياة و لا يمانع من التعامل معها و إنما يمانع من جعلها غاية في ذاتها و يمانع من حبها و التعلق بها ، و ذلك في هذا القول " إنه يتعامل مع الدنيا بكل ما فيها على أنها استراحة في الطريق إلى غاية و ليست غاية في نهاية الطريق و المفروض ألا يوجد في الاستراحة إلا ما يعين المسافر غاية بلوغ غايته لا أن يوجد فيها ما يغيره بالبقاء أو يزعج به الغفلة و النسيان " ¹.

4-2- ملامح تتعلق بأعمال السلوك:

و يشير البوطي رحمه الله عدة ملامح متعلقة بسلوك الناس و أعمالهم فيذكر منها :

1- التوكل:

يستقي البوطي رحمه الله حقيقة التوكل و معناه و كيفية تطبيقه من قول ابن عطاء الله السكندري في الحكمة الخامسة و العشرين " ما توقف مطلب أنت طالبه بربك و لا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك " ²، و في شرحه لهذه الحكمة يبين أن من عقيدتنا الإسلامية أن لا نجيب مؤمن ساع إلى مطلب و هو متوكل على مولاه مستعينا به متبرئا من أوهام قوته و حوله و يستدل على ذلك بآية الافتقار إلى الله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} ³، و يذكر البوطي رحمه الله بعض الأدلة المبينة لحقيقة التوكل على الله و منها قوله صلى الله عليه و سلم (احرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجز و إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا و لكن قل قدّر الله و ما شاء فعل) ⁴.

و تبرز هنا ثمرة التوكل بأنه لما يكون الفعل بيد الله وحده و أن الإنسان لا يملك إلا ما ملكه الله و أن حقيقة العبادة و الإيمان الصحيحين مبنيهما التجرد من الحول و القوة و الإحساس بالفقر إلى الله و من يتجلى بهذا الأمر فإنه يحمله على التوكل على الله و الاستعانة به في سائر ما يقبل عليه و يقوده إلى المداومة على ذكر الله و استشعار رقابته و الفرار إليه ، و هنا يشير البوطي إلى أمر مهم و هو أنه قد يلتبس علينا الأمر في الموافقة العملية بين التوكل و الأخذ بالأسباب فيقول " إن هذه القاعدة لا يعني أن على المؤمن الوثاق بأن العون و التوفيق من عند الله أن يهمل الحركة و الأخذ بالأسباب و أن لا يقيم وزنا للوسائل و المسخرات المادية في الطريق إلى الأهداف و الغايات بل على العكس بالتمام أن من صميم التوكل الأخذ بالأسباب المساعدة على بلوغ المرام ، و لنا في الرسول صلى الله عليه و سلم أسوة حسنة يوم هجرته إلى المدينة المنورة. ⁵

و يزيد ابن عطاء الله السكندري في الحكمة التاسعة و الثلاثين حيث يقول " لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك فكيف يرفع غيره ما كان له واضح و من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا " ⁶، و هنا يبين البوطي

¹ المرجع نفسه، ج02، ص177.

² ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص50.

³ سورة فاطر، الآية 15.

⁴ الإمام مسلم، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة و ترك العجز و الاستعانة بالله و تفويض المقادير له، رقم الحديث 2664، مع04، ص2052.

⁵ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج01، ص ص 359-360.

⁶ ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص53.

رحمه الله معنى هذه الحكمة فيقول " في هذه الحكمة تنبيه بليغ إذ يرشدك إلى حال نزول المشكلة أو المصيبة بساحتك فأول ما تفعله هو البحث عن مصدرها -من أين جاءت و من أين حلت- فإن علمته فاتجه إليه و اطلب منه أن يرفع عنك البلاء فكيف تسنى لكائن من كان أن يرفع عنك من الحاجة أو البلاء ما قد وضعه فيك أو حُرِّكَ إليك غير الله"¹.

فهذا هو مسلك المتوكلين على رحمهم حق التوكل فتتضح بذلك معالم الطريق القويم بانقطاع الرجاء من المخلوقين و لا يتنافى التوكل مع شكر المخلوقين حال كونهم سببا لحصول المنفعة أو عن دفع البلاء، و لهذا فالتوكل هو أحد و أبرز و أهم سبل التربية الروحية للسالكين دروب الحق و الهداية.

2- الذكر:

للذكر مكانة كبيرة في مدارج السالكين و كذا أهمية في الرقي الروحي و يمثل أحد أهم جسور الوصل مع الله عز وجل ، و قد انطلق الإمام البوطي رحمه الله في بيان هذه المكانة من خلال شرحه للحكمة السابعة و الأربعين لابن عطاء الله السكندري و التي يقول فيها " لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره فعسى أن يرفعك الله عن ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة و من ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور و من ذكر مع حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور و ما ذلك على الله بعزیز"²، و يدخل في الذكر أعمال كثيرة منها الاستغفار و التسبيح و الحمد و التوحيد و التفكير في الخلق و الصلاة على الرسول و غيرها و كما يكون الذكر بالقلب أو اللسان حال الحضور مع الله عز وجل فالذكر باللسان هو واحد من السبل الموصلة إلى الذكر القلبي و من لم يجد أثرا في قلبه من الذكر باللسان و بقى القلب في واد آخر فليحذر أن تحدّثه نفسه بترك الذكر كلية فإن الغفلة عن الذكر أشد من الغفلة في الذكر .

و يقول البوطي رحمه الله " و صفوة القول أن السلوك إلى الله تعالى ليس له بعد الإيمان به إلا سبيل الذكر و إنما مفتاحه الذكر اللساني و لا حرج أن يكون القلب غافلا إذ حركة اللسان بالذكر م شأها أن تبعث شيئا فشيئا إلى يقظة القلب"³.

كما نجد أن البوطي رحمه الله يربط ذكر الله وحده و تعظيمه و واضح أن حب الله و تعظيمه عز وجل يجعل العبد لا يغفل عن مولاه و يجعل لسانه يتحرك بذكره و لذلك فهو يرى أن بالذكر تحيا القلوب، و يضرب البوطي رحمه الله مثلا لتوضيح الأمر فيقول " فتلاوة القرآن و هي من أجّل أنواع الذكر فإن تجاوز التالي مرحلة الغفلة أثناء التلاوة إلى مرحلة اليقظة إلى معانيه فإن المداومة و الاستمرار على هذه الحالة يغرس معاني الآيات في النفس فإذا ترسّخت هذه المعاني سرت منها مشاعر الحب و الخوف و التظيم لله"⁴ .

3- التدبر و النظر و التفكير:

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم و كرمه أحسن تكميم و من أبرز مظاهر التكرم الإلهي أن رزقه عقلا مفكرا و لما كان العقل يكتسي أهمية بالغة جاءت دعوة القرآن إلى الإهتمام به و الحث على استعماله في كثير من الآيات غير أن التكرم يتبعه تكليف و مسؤولية ، و قد حث الله تعالى الإنسان على إستعمال العقل في النظر و التدبر في الأنفس و الآفاق ابتغاء الوصول إلى معرفته تعالى و زيادة الإيمان به و للوقوف على أهمية التدبر في تربية الروح نذهب في ساحة عطرة رفقة البوطي رحمه الله في تبيان هذا الأمر و توضيحه من خلال شرحه لما

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج1، ص 108-109 .

² ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص54.

³ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج2، ص 197 .

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج2، ص200..

جاء في الحكمة العطائية و في الثانية و الستون منها و القائلة "الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار"¹ و في هذا السياق ينبّه البوطي رحمه الله إلى أن النظر و التدبر "هو تفكير مطلق يتعلق بالأغيار كلها فحين يوجه العبد فكره إلى الأغيار المتنوعة فإنه يتعرف على طاعاته التي كلفه بها فينهض بها إلى آخر فصول و تعاليم الدين الحنيف الموصلة إلى جادة السير"²، و مقومات السير إلى الله الإيمان به و حبه و تعظيمه و السير على صراطه و إستعدادا للمآل و كل هذا يتحقق عن طريق التفكير بمعناه الشامل و مما حذر منه البوطي رحمه الله المسلم في مجال التفكير الابتعاد و تجنب التفكير في ذات الله العلية فان هذا التفكير يؤدي إلى الحيرة و الشك و ذلك لعجز العقل عن الإحاطة بخالقه و لهذا فالأجدر أن يوجه الإنسان طاقة التفكير عنده إلى صفات الله و أسمائه و هذا التفكير من شأنه أن يُورث المعرفة و اليقين و قد ذكر ابن عطاء الله السكندري في الحكمة التاسعة و الخمسين بعد المائتان "الفكرة فكرتان فكرة تصديق و إيمان و فكرة شهود و عيان فالأولى لأرباب الاعتبار و الثانية لأرباب الشهود و الاستبصار"³، و هنا يقسم البوطي رحمه الله أهل الفكرة إلى ثلاثة طوائف جاء ذكر لإثنين منها في هذه الحكمة و هما :

"الطائفة الأولى و هم الذين ينطلقون من التأمل في المكونات و الآثار لينتهوا إلى الإيمان ، و أما الطائفة الثانية فهم الذين ينطلقون من التأمل فيما أورثهم شهودهم القلبي لله تعالى من مشاعر التعظيم و المهابة و الحب له فتبدأ رحلتهم من المؤثر جل جلاله و ينتهون إلى الآثار و المكونات ، و أما الطائفة المحجوبة عن نفسها بسبب رعوناتهم و أهوائهم فقد هداهم تفكيرهم في المكونات إلى ما يمكنهم إلى تسخيرها و استغلالها في تلبية حاجة رغباتهم و رعوناتهم"⁴.

و في تمام الكلام عن التدبر و التفكير نلحظ أهمية العقل و الفكر في حياة الإنسان إذ بهما يحدد مصيره و نهايته وفق إرادته الاختيارية لا الاضطرارية كما تتضح طبيعة المسلك الواجب عبوره لبلوغ المرام بأمن و أمان إنه مسلك جهاد النفس و رد شهواتها و من ثمة يلزم الإنسان نفسه بالتفكير في مصيره و حاله و أن يوقظ عقله عند كل غفلة أو نسان.

4- الصلاة:

الصلاة الصلاة أو ما ملكت أيمانكم كانت آخر وصية قالها النبي صلى الله عليه و سلم لتكون آخر ما يستقر في الآذان من كلامه صلى الله عليه و سلم كونها ذات أهمية و مكانة عالية في الإسلام و يسوق البوطي رحمه الله كلاما جميلا عند شرحه للحكمة التاسعة عشر بعد المائة التي جاء نصها كالآتي " الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب و استفتاح لباب الغيوب"⁵، حيث يقول " الصلاة في الظاهر واحدة من التكليف الشاقة التي يجب على المسلم أن يؤديها في مواقيتها المحددة إلزاما بقوله تعالى { فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا }"⁶، و لكن لو تأملت لرأيت أن الصلاة شفيع متكرر يبعثه الله لعباده ليمحو عنهم ما ارتكبه من آثام و أوزار بين الصلاة و الأخرى...."⁷، كما يكشف عن حقيقة الصلاة بأنها استضافة الله تعالى للعبد في رحابه فيثبت بأن إقبال العبد مستجيبا لضيافة الله و دخوله في رحابه و وقوفه في حضرته و مخاطبته بالحمد و

¹ ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص 88 .

² محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج 05، ص 334 .

³ ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص 88 .

⁴ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج 05، ص 342 .

⁵ ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص 66 .

⁶ سورة النساء، الآية 103 .

⁷ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج 03، ص 335 .

الثناء و التوحيد ثم التوجه إليه بسؤال الهداية و الرحمة و الغفران لكان له أن لبَّاه الله و حباه بما يكرم به الكريم ضيوفه و مستند البوطي رحمه الله في هذا الأمر و قوة اعتماده تعود إلى المصادر التشريعية الثابتة و الصحيحة من نصوص القرآن الكريم و السنة النبوية ، فالصلاة التي تؤدي بشروطها و أركانها و آدابها تمحو إثم المعاصي و لو كانت حدودا ما لم تهدر حقا من حقوق العباد كالقتل و القذف هذه هي الصلاة الموجبة للمغفرة و لتكفير الذنب حيث وصفها البوطي رحمه الله بوصف خاص عن صلا الناس اليوم فقال " هي تلك التي إذا دخلها العبد أسدل منها حجابا يحجبه عن الدنيا و يرحل به إلى الله و تلك أخبر النبي صلى الله عليه و سلم بأنها تنهى عن الفحشاء و المنكر"¹ ، و يزيد رحمه الله تفصيلا في ذكر الخصائص المميزة للصلاة عن بقية العبادات مما جعل منها مسلكا من مسالك الدارجين و مقصدا لتربية الروح و السلوك من خلال شرحه للحكمة العطائية العشرون بعد المائة القائلة " الصلاة محل المناجاة و معدن المصفاة تتسع فيها ميادين الأسرار و تشرق فيها شوارق الأنوار ، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها و علم احتياحك لفضله فكثرت أمدادها"².

و قد أجمل البوطي رحمه الله ثلاث خصائص و هي:

" الخاصية الأولى: الصلاة محل المناجاة و كلمة مناجاة جاءت على وزن مفاعلة الدالة على المشاركة بمعنى مشاركة الرب عبده حال المناجاة بأن يكون من العبد و الدعاء و تكون من الله الإجابة و المصفاة .

الخاصية الثانية: الصلاة معدن المصفاة و هنا استعير معنى كلمة المصفاة الدال على تصفية الحساب بين إثنين ليبدل على معنى العفو و الصفح فمن خلال الحوار بين العبد و ربه أثناء الصلاة يمحو الله بذلك سيئاته.

الخاصية الثالثة: أن الصلاة ميدان يتعرض فيه المصلي لأسرار علوية تهبط إلى قلبه و أنوار ربانية تسري في كيانه فتمتزج بروحه فيتذكر عهده القلم يوم يناجي الله الأرواح"³.

5- الورد:

للورد أهمية و مكانة كبيرة في التربية الروحية و دور فعال في الترقى الروحي و السمو الوجداني ، و لهذا أورده ابن عطاء الله السكندري في الحكمة الثانية عشر بعد المائة فيقول " لا يستحق الورد إلا جهول الوارد يوجد في الدار الآخرة و الورد ينطوي بانطواء هذه الدار و أولى ما يعتنى به مالا يخلف وجوده ، الورد هو طالبه منك و الوارد أنت تطلبه منه و أين هو طالبه منك مما هو مطلبك منه "⁴ فهذه الحكمة البالغة يستفتحها ابن عطاء الله السكندري رحمه الله بإصدار حكم الجهالة على كل من يحتقر أو يزدري أو يحط من قيمة الورد ، و في ثانيا هذا الحكم دلالة على حقيقة يقينية و إيمان مطلق ألا و هي أهمية الورد و مكانته عنده التي قد تكون وردت له من اتفاق حال أهل الصلاح على الاستطباب بالورد و الاستشفاء به عند الوحشة و الضعف.

و الآن نقف مع البوطي رحمه الله في شرحه لهذه الحكمة إذ عرف الورد بقوله " هو الحصة التي تلزم بها نفسك من الطاعات النافلة في أوقات معينة كقراءة ما تيسر من القرآن و الإلتزام بأذكار الصباح و المساء "⁵.

و يرجع سبب استخفاف الناس بالورد حسب البوطي رحمه الله إلى الاستخفاف الحاصل بالتصوف و الأعمال القلبية عموما التي يبتغى منها تطهير النفس من الرعونات و النزوات ، و هنا يذكر السبيل المؤدي لحياة القلوب " هو الإلتزام بالفرائض و تجنب المعاصي و

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية ، ج 03، ص 339.

² ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص 66 .

³ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج 03، ص 341.

⁴ ابن عباد النفزي الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، مرجع سابق، ص 65 .

⁵ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج 03، ص 278.

الإكثار من مراقبة الله و ذكره... فالإكثار من ذكر الله بكل أنواعه مطلوب و تنظيم القيام به أمر مطلوب أيضا و هذا من صميم الانضباط و النظام"¹.

و يعطي البوطي رحمه الله مثالا عن الالتزام بالورد فيذكر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا شغله شغل عن ورده في مياعده المحدد قضاه بعد ذلك و لعله كان أيام خلافته ، و لهذا فالورد زاد المهاجر إلى ربه فاذا انقطع الزاد أو قل انقطع السفر أو أوشك على الانقطاع.

5. خاتمة:

لا يسعني في خاتمة هذا البحث إلا التأكيد أن البوطي رحمه الله قامه علمية و دعوية متميزة و عالم رباني جليل و شخصية بارزة و متميزة في هذا العصر و لذلك لطرحه مشروعا حضاريا قوامه التربية الروحية أو التزكية و بناء الجانب الروحي في حياة الفرد و المجتمع. و قد اشتمل البحث على عدة نتائج و توصيات مستخلصة من فكر البوطي رحمه الله و نذكر منها ما يلي:

أولا النتائج: و قد خلصت هذه الدراسة إلى إبراز النتائج التالية:

- 1- الإعداد التربوي و الروحي الناجح في حياة الفرد و المجتمع هو نجاح شامل لجميع مناحي الحياة إذ تنعكس إيجابا عليها و يدفع بها نحو الرقي في العلو و التأثير لاحداث التغيير المنشود.
 - 2- يعتبر الاعتناء بالجانب الروحي اليوم ضمن أولويات المرحلة الراهنة بل على رأس سلم الأعمال الدعوية في المشروع الحضاري و النهضوي المأمول من حيث النظرية و التطبيق.
 - 3- الاعتناء بالجانب الروحي في المشروع المستمد من منهج القرآن الكريم و الذي امثل تطبيقه في واقع حياة المسلمين النموذج الأمثل و هو الرسول صلى الله عليه و سلم فهذا فريضة شرعية كما هو ضرورة واقعية .
 - 4- الحكم العطائية دفق روحاني هائل و مصدر تربوي عظيم و حديقة وارفة الظلال يستجير بظلها كل مستغيث ملهوف.
- ثانيا التوصيات:** و من التوصيات التي أوصي بها من خلال هذا البحث:

- 1- ضرورة الاعتناء بالجانب الروحي و الاهتمام به في إعداد المجتمع المسلم لمواجهة الأفكار و التيارات الدخيلة على الإسلام.
- 2- ضرورة الاهتمام بالجانب الروحي و مزجه بكل ما يتصل بمناحي المعرفة على تنوع تخصصاتها و جعله محتوى أساسي تبني عليه الدراسات الإنسانية و هذا لأهميته في صناعة الحياة و يستوجب صياغة تجريدية لمعرفة أكثر ملائمة مع الواقع.
- 3- دعوة الجامعات و المعاهد و المراكز الإسلامية لتنظيم ملتقيات و ندوات لإبراز مجهودات البوطي رحمه الله العلمية و الدعوية و ذلك لرسم منهج تربوي إصلاحي شامل.
- 4- دعوة طلبة العلوم الإسلامية بجميع تخصصاتها لتسليط الضوء و دراسة الموروث العلمي و المؤلفات الكاملة للبوطي رحمه الله.
- 5- دعوة المتصدين للحقل الدعوي و التربوي للاستفادة من المشاريع التربوية للبوطي رحمه الله.

و في الأخير لقد حاولنا قدر استطاعتنا في هذا البحث أن نسلط الضوء على جانب من المناحي الروحية في حياة البوطي رحمه الله و التي نرى أن كثيرا من جهوده أجدر ما يهتم بها بالدراسة و الإثراء ، و ختاماً نسأل الله أن يتغمد البوطي رحمه الله بواسع مغفرته و أن يدخله فسيح جنات الفردوس مع النبيين و الصديقين و الشهداء و أن يوفقنا لما فيه الخير و أن يمن علينا بجميل عطفه و كريم فضله إنه ولي ذلك و القادر عليه و الصلاة و السلام على خاتم الأنبياء و المرسلين آمين يا رب العالمين.

¹ محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، مرجع سابق، ج05، ص111.

6. قائمة المصادر و المراجع:

* المصادر:

* القرآن الكريم.

* محمد سعيد رمضان البوطي، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث، دار الفكر، دمشق سوريا 2018م، الصفحة 35.

* محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2003م، الجزء الأول، الصفحة 360، 359، 349، 341، 334، 175، 34، 08.

الجزء الثاني، الصفحة 35، 108، 109، 182، 186، 197، 200، 249، 488.

الجزء الثالث، الصفحة 30، 278، 335، 339، 341، 350.

الجزء الرابع، الصفحة 45، 46، 151، 153، 156، 157، 160، 198، 199.

الجزء الخامس، الصفحة 111، 334، 342.

* محمد سعيد رمضان البوطي، الظلاميون والنورانيون، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2011م، الصفحة 127، 128، 130، 134، 139، 144، 145، 175، 176، 183.

* محمد سعيد رمضان البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام، دار الشهاب، باتنة-الجزائر 1987م، ص 72، 73، 74.

* محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الفكر، دمشق-سوريا، ط 25، 2003م، ص 283.

* محمد سعيد رمضان البوطي، نحو منهج تربوي فريد، دار الشهاب، باتنة-الجزائر، د.ت، الصفحة 17، 19، 64، 73، 75، 176، 183.

* محمد سعيد رمضان البوطي، هذه مشكلاتنا، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2008م، ص 134، 135.

* مجموعة من المؤلفين، محمد سعيد رمضان البوطي، بحوث و مقالات مهداة إليه، دار الفكر، دمشق-سوريا، ط 01، 2002م، الصفحة 173، 175، 183.

* المراجع:

* الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة و مطبعة مصطفى البابلي الحلبي مصر، ط 02، 1975م، الصفحة 548.

* ابن عباد النفري الرندي، الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، إعداد و دراسة محمد عبد المقصود هيكل، مؤسسة الأهرام، القاهرة-مصر، 1988م، الصفحة 45.

* مسلم، صحيح مسلم، دار طيبة للنشر و التوزيع، الرياض-الملكة العربية السعودية، ط 01، 2006م، المجلد 01، الصفحة 44، المجلد 04، الصفحة 2052، 1995، المجلد 41، الصفحة 03.

* مواقع الأنترنت:

* محمد سعيد رمضان البوطي، ملامح تربوية في السيرة النبوية، موقع نسيم الشام www.naseemalsham.net، 11/ 12/ 2010م، ص 01.* حسين معن، نظرات حول الإعداد الروحي، في الطريق إلى الله، موقع سراج www.Alseraj.net

01 ماي 2017م، الصفحة 51، 248.